التحدي الكبرى . وهي لا تعنـــي الانطلاق من الصفر . فلم يكـــن ماضينا ، في ادنى مستوياته ، صفرا . ولكن البداية قد تعني التنازل عن الفكر والاسلوب اللذين جعلا نهوض الامة بطيئا الى هذا الحد ، وتعني هضم واستيعاب طرائـــق تفكير وممارسة جديدين ينسجمان مع متطلبات العصر الجديد .

وقد لا نبالغ اذا سجلنا ان تحدي ربع القرن الذي مارسه العدو الصهيوني ضدنا ، بكل ما يمثله ، قد جعل بعض العرب يسعى الى محاولة النسخ عن العدو ، بحجة ان السلاح الذي انتصر به العدو ، هو السلاح الوحيد الذي نهزم به العدو . أعني بالسلاح هنا التجربة . مثلا : ان كون اسرائيل مجتمعا عسكريا قد أتاح لبعضنا الحق في ترسيخ الروح العسكرية في حياتنا المدنية . وان كون اسرائيل قامت على دعوة دينية لاستقطاب يهود العالم . أو كونها دينت السياسة ، وسيست الدين ، قد أوحى للبعض فرض الدين — بمعناه الحرفي — على كل شيء فينا حتى أصبح في بعض الاحيان نقيضا للعلم . وان كون اسرائيل تستمد مقومات بقائها وقوتها من الدولة الاستعمارية الاقـــوى : مرة بريطانيا ، ومرة فرنسا ، ومرة الولايات المتحدة الامريكية ، قد دفع البعض الى محاولة خوض المنافسة مع اسرائيل على كسب ود اميركا ، على اعتبار ان العالم العربي أكثر ضمانا للمصالح الامريكية من اسرائيل الصغيرة . باختصار ، استطاع العدو أن ينقل الى البعض منا عدوى أمراضه المزمنة التي منحته خديعة الانتصار ، وستعطيه واقع الهزيمة في الحساب التاريخي البعيد .

ان التحدي العربي لاسرائيل وما تعنيه يحمل مضامين أعمق من معركة عسكرية . انه يحمل نواة ثورة حقيقية تعيد الى التاريخ العربي المعاصر شبابه ومكانته التي لا حد لها اذا تحررت امكانياته وموارده ومفاهيمه في العالم الحديث .

هذه هي البداية العربية التي تتكون في الحرب ضـــد الغزو الاسرائيلي وينبوعـــه الاميركي . وحين تتجسد هذه البداية العربية ، تتشكل في الوقت ذاتـــه بداية النهاية الاسرائيلية .

ليس بوسع أحد ، الآن ، أن يستشرف النهاية العملية العسكرية والسياسية لهذا الصراع المسلح . ولكن يمكن للرؤية التاريخية ان تلمح وصول التجربة الاسرائيلية الى حافة الفشل . وقد يبدو ، للوهلة الاولى ، أن العرب يدافعون الآن عن خسارة — اذا أعادوها — فانهم يعودون ست سنوات الى الوراء وهو تاريخ الخسارة . وليس هذا الانطباع سليما ، لان عودة ست سنوات الى الوراء في المفهوم الجغرافي تعني قفزة تاريخية كبرى في المفهوم السياسي وفي الصراع الفكري مع العدو .

لنسأل اولا : عم يدافع العدو منذ السادس من اكتوبر الماضي ؟ لماذا يدفع كل هذا الدم من أجل أرض محتلة . لقد امتلأت القناعة الاسرائيلية بأن « فلسطين لها » ، ولكنها لم تبلغ هذا الحد من القناعة بأن الجولان وسيناء أرضها . من هنا قـــد يطرح سؤال محايد : لماذا لا تخضع اسرائيل للضغط العربي والعالمي وتنسحب من الاراضي العربية مكتفية بالاراضي الفلسطينية وترتاح ؟ وقد يطرح سؤال محايد آخر : الم تشكل الضربة العربية الاولى في السادس من اكتوبر برهانا كافيا لاسرائيل علـــى أن حدود الامـــن الجغرافية قابلة للتحطيم ؟ فلماذا لا تبحث عن أمن آخر ؟

وبغض النظر عن حجم المطامح الاسرائيلية ، الاقتصادية والعسكرية ، التي تدفعها الى الاحتفاظ بهذه الارض العربية التي تسفك عليها كل هذا الدم والمال ، فان احتفاظ اسرائيل بهذه الارض يحتشد بمعان كثيرة ، بحيث صار التخلي عن الارض يعني لهـــا تخليا عن فلسفة وجود ومبرر كيان وقاعدة عقيدة . ان اسرائيل تعتبر ان خط الدفاع الاول عن تل أبيب هو قناة السويس . ولقد كان من نتائج النصر الاسرائيلي الرخيص في